مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد التاسع عشر
2002

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1370 من وفاة الرسول ﷺ 2002 من ميلاد المسيح عليه السلام

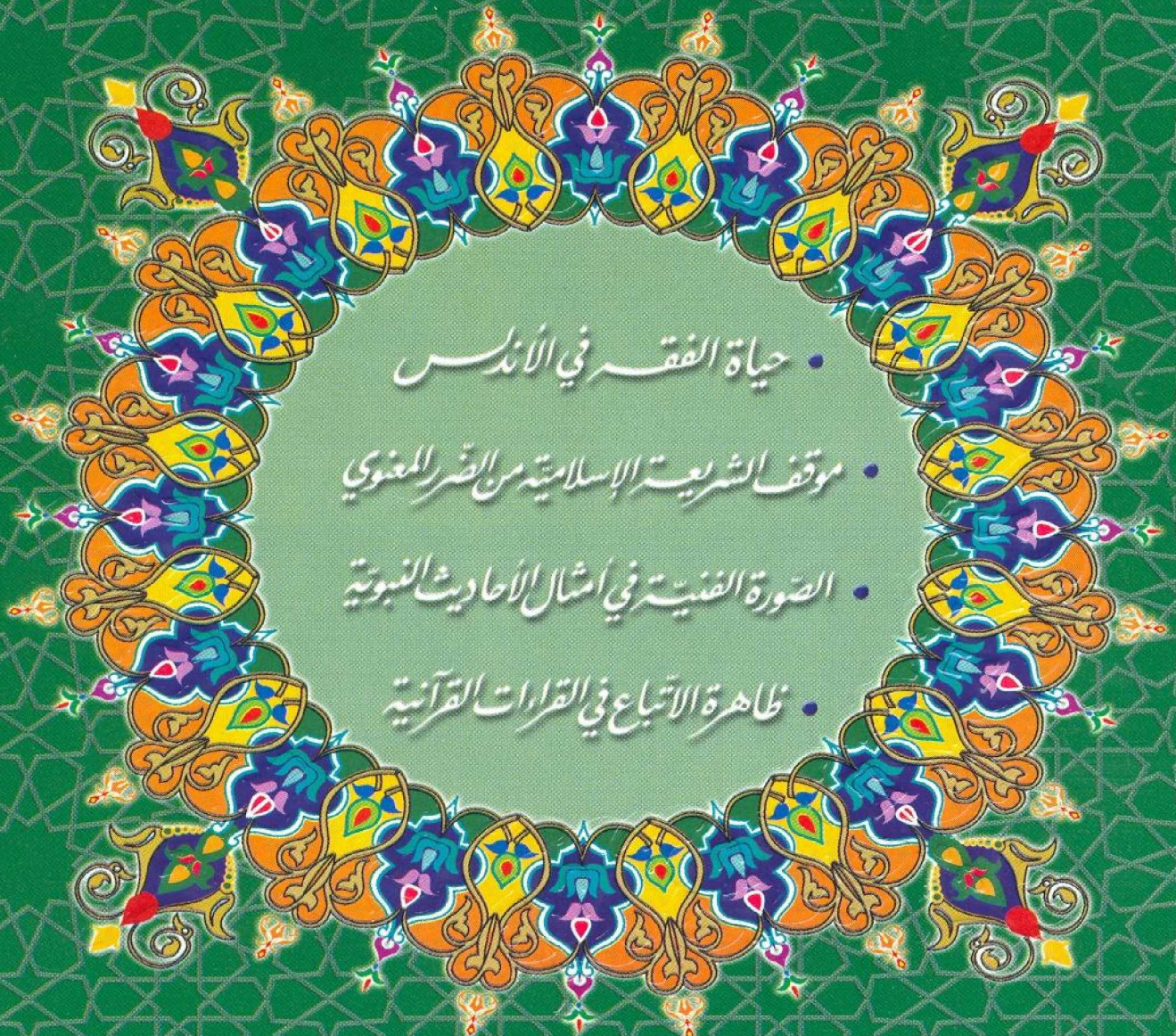

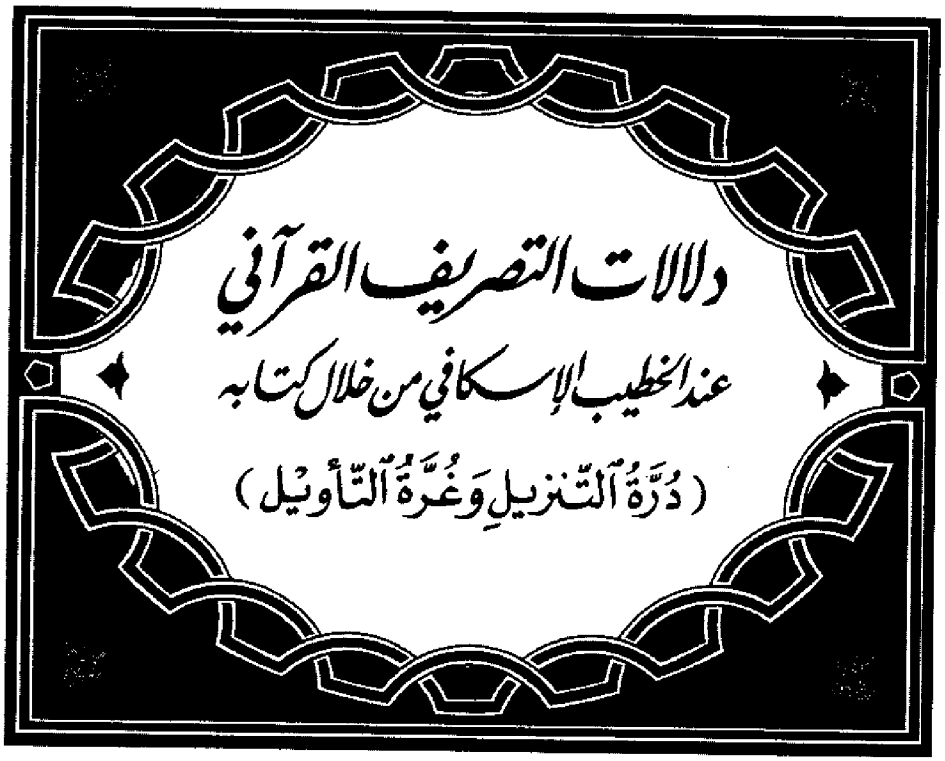

د. عبدالله محمد النقراط
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

الحمد لله الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن أسرار كتاب الله كثيرة ومتنوعة لا يستطيع أحد حصرها مهما أوتي من العلم، لأنه المعجزة الخالدة.

والخطيب الإسكافي ممن أوتي حظاً من العلم، ومقدرة على بيان أسرار كتاب الله تعالى في الآيات المتشابهات، وكان له فضل السبق في التصنيف فيها، تصنيفاً مستقلاً، وذلك في كتابه (درّة التنزيل وغرّة التأويل، في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز).

والجدير بالبيان في هذا المقام أن متشابه القرآن الذي صنّف فيه العلماء نوعان:

الأول: المتشابه اللفظي، ويطلق عليه في علوم القرآن (علم الآيات المتشابهات) أو (علم المتشابه) وهو من علوم التفسير.

والثاني: (علم المحكم والمتشابه، ويقصد به هنا آيات الصفات والأفعال، وموضوعه (علم الكلام).

وجميع العلماء الذين صنفوا في المتشابه راعوا هذا التقسيم، وهو الذي سار عليه فيما بعد المصنفون في علوم القرآن[1].

والذي يهمنا في هذه الدراسة هو النوع الأول، الذي جعله الزركشي في كتابه (البرهان) النوع الخامس من أنواع علوم القرآن، وأفرد للمحكم والمتشابه نوعاً مستقلاً من علوم القرآن، وتبعه في ذلك السيوطي في كتابيه (الإتقان) و(معترك الأقران)[2].

والنوع الأول ـ أي المتشابه اللفظي ـ نوع مستقل بذاته يقصد به الإعجاز اللغوي بالتصرف في الأسلوب بنقله من مكان إلى مكان في القصة الواحدة، أو الموضوع الواحد، لغرض بلاغيّ لا يدركه إلا أصحاب اللغة الذين خوطبوا بالقرآن الكريم، وهم أرباب الفصاحة وجهابذة البلاغة، وأساطين البيان، مع الاحتفاظ بالمعنى.

والمتشابه على هذا يختلف أيضاً عما ورد في القرآن الكريم من آيات «الوجوه والنظائر» مما يجب معرفته كنوع مستقل أيضاً.

فالألفاظ التي تحتمل أَوْجُهاً في التفسير مما يعبر عنه بألفاظ الأشباه والنظائر والوجوه، ترد بلفظ واحدٍ يتنوع، إذ يكون له في كل موضع معنى يختلف عما في الموضع الآخر[3].

وأَقْدمُ من أفرد المتشابه اللفظي بالتصنيف هم أئمة القراءات الذين غلب

---

(1) انظر: مقدمة البرهان في متشابه القرآن، ص 58، 59.

(2) انظر: البرهان في علوم القرآن، 1/ 112، والإتقان، 3/ 339، والبرهان في متشابه القرآن، ص 59.

(3) انظر: كشف المعاني، ص 45، 46.

عليهم تخصصهم، فلم يحاولوا إماطة اللثام عن أسرار المتشابه، ومنهم:

أ ـ الإمام حمزة بن حبيب الزيات، ت 158هـ.

ب ـ الإمام نافع بن عبد الرحمن، ت 170هـ.

ج ـ الإمام علي بن حمزة الكسائي، ت 189هـ.

وهم من القراء السبعة.

ومن القراء العشرة: الإمام خلف بن هشام الأزدي البزار، ت 229هـ.

وأما التأليف فيه بمعناه العلمي فأقدَم مُصنّف وصلنا من هذا النوع، هو مؤلَّف الخطيب الرازي، المشهور بالإسكافي «دُرّة التنزيل وغُرّة التأويل»[4].

وقال السيوطي: (أفرده بالتصنيف خلق، أولهم ـ فيما أحسب ـ الكسائي، ونظمه السخاويّ، وألف في توجيهه الكرماني كتابه «البرهان في متشابه القرآن» وأحسن منه «دُرّة التنزيل وغُرَّة التأويل» لأبي عبد اللّه الرازي، وأحسن من هذا «مِلاك التأويل» لأبي جعفر بن الزبير، ولم أقِفْ عليه، وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب لطيف سماه «كشف المعاني عن متشابه المثاني»[5] وفي كتابي أسرار التنزيل المسمى «قطف الأزهار في كشف الأسرار» في ذلك الجمّ الغفير)[6].

وقد بين الخطيب الإسكافي في مقدمة كتابه (دُرَّة التنزيل) أنه أول من ألف في هذا النوع، إذ قال: «فعزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت على أسرارها معاني المتأولين المتبحرين، فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف ولم يقرع بابها ولم يفتر لهم عن نابها، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً، وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً»[7].

---

(4) البرهان في متشابه القرآن، ص 93.

(5) كتاب ابن جماعة اسمه: (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) وهو ما صرّح به مؤلفه في ص 64 منه، وأثبته كذلك محققه د. عبد الجواد خلف في ص 45 بهذا العنوان.

(6) الإتقان، 3/ 339.

(7) درة التنزيل وغرة التأويل، ص 7، 8.

وقد جاء تأليف هذا الكتاب رداً على الجاحدين والملحدين، الذين طعنوا في القرآن الكريم وبيانه، وذلك بما تراءى لهم من تكرار ـ حسب قولهم ـ وهو عكس ما رأوا؛ لأنهم جهلوا روعة القرآن الكريم، وبيانه المعجز.

وقد بين غرضه من تأليف كتابه هذا، فقال: «ولطعن الجاحدين رداً، ولمسلك الملحدين سداً»[8].

والخطيب الإسكافي لم يصرح بتفاصيل منهجه في مقدمة كتابه هذا، اللهم إلا ما يفهم من بيان غرضه، لتأليف كتابه، الذي مرت الإشارة إليه.

وقد حاول أن يبين منهجه في خاتمة مقدمته، واكتفى بالإشارة، فقال: «ومن الآن أبين الطريق الذي سلكته، وأفضي به إلى علم ما عرفته، وأذكر ما نبهني على ما ادعيته، لأريكم مثل ما رأيته، وبالله أستعين، وهو حسبي ونعم المعين»[9].

بيد أن المتتبع لهذا الكتاب يجد أن الخطيب الإسكافي قد انفرد بمنهج رائع، ينبئ عن فكر ثاقب، وبخاصة أنه أول من ألف في هذا المجال.

سار الخطيب على منهج المفسرين، وهو المنهج الذي يبدأ من أول القرآن الكريم إلى آخره.

والمنهج الذي اتبعه هو استقراء الآيات، وقد تتبع كل ما أراد توجيهه من الآيات المتشابهات في القرآن الكريم، مراعياً ترتيب التلاوة، سورة سورة، وآية آية، فيذكر السورة ثم يتناول ما فيها من الآيات المتشابهات مرتبة حسب ترتيب التلاوة، حتى إذا انتهى من السورة انتقل إلى السورة التي تليها، ثم يذكر الآية في أول سورة ويلحق بها ما يشابهها من الآيات من نفس السورة، ومن باقي السور، بطريقة استقرائية دقيقة، ثم يفصّل القول فيها تفصيلاً يبين أسرار اختصاص كل منها بما جاء فيها من متشابه، رداً على من يدعي وجود تكرار في القرآن الكريم.

---

(8) نفسه ص8.

(9) درة التنزيل، ص9.

يُحمَد لهذا العالم ابتكارُه هذا النوع من التصنيف ودفاعُه عن القرآن الكريم، وما بذله من جهد صادق في توجيه المتشابه، نلمسه في جميع توجيهاته لهذه الآيات، ويعتمد في توجيهه لهذه الآيات على علم المناسبة، إذ يستنبط توجيهه من سياق الآيات وارتباطها بسوابقها ولواحقها.

وأحياناً يعلل توجيهاته بالقواعد النحوية، وهو ما يدل على رسوخه في هذا العلم، وللتمثيل على ذلك نسوق قوله: «ولِمَ كانت الأولى معدودة والثانية معدودات، والموصوف في المكانين موصوف واحد، وهو قوله: ﴿أَيَّامًا﴾ الجواب عنه: أن يقال أن الجمع بالألف والتاء أصله للمؤنث، نحو مسلمة ومسلمات، وصفحة وصفحات ومكسورة ومكسورات، ولا يكاد يجيء الجمع الذي واحده مذكر هذا المجيء إلا ألفاظاً معدودة نحو: حمام وحمامات، وجَمَل سِبَطْر وجِمالٌ سِبَطْرات، وأسد سبطر وأسود سبطرات... وأما قولهم: كوز مكسور وجرّة مكسورة فإن ما فيه هاء التأنيث يجمع على مكسورات، فيقال جرار مكسورات وكيزان مكسورة، وليس قولك كيزان مكسورات بأصل، بل المستعمل في ذلك أن يقال كيزان مكسورة...

فلما كان معدودة من المطرد المستمر استعمل لفظها في الأول، ولما كان الجمع بالألف والتاء في الأصل قد يكون فيما واحده مذكر، وإن قلّ وكان على سبيل من سبل المجاز استعمل ذلك فيه، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾[10]، وقال: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[11]. والأيام جمع يوم وهو مذكر، فيكون على أحد الوجهين، إما أن يكون المراد اذكروا الله في ساعات أيام معلومات ومعدودات؛ لأن المراد من اذكروا الله أن يكبر في اليوم الواحد في أدبار الصلوات الخمس المعدودة، فحذفت الساعات وأقيم المضاف إليها مقامها، وإما أن يكون ألحق بما في واحده علامة التأنيث في الجمع ودخولها في الفرعية التي يكتسبان لها لفظ المؤنث... وإن كان ذلك كذلك فمعدودة

(10) سورة البقرة، الآية: 203.

(11) سورة الحج، الآية: 28.

المذكورة في هذه السورة مستمرة في بابها وباب غيرها، والجمع بالألف والتاء ليس بمستمر، وإنما هو على ضرب من التشبيه بما أصله الألف والتاء، فكان استعمالها أولى»[12].

ومما يدل على تبحره في علم النحو، أنّنا نجده أحياناً يرد على النحاة، كما في قوله: «فاللام ليست مقحمة على ما ذهب إليه الكثير من النحويين، وإنما معناه ما ذكرنا من الأمر بالعبادة لأجل أن يفعل أولاً ما أمر به، ثم يحمل الناس على مثله، وهذا واضح فاعرفه ـ إن شاء الله تعالى ـ»[13].

ويعالج أثناء ذلك فنون الكلام من تقديم أو تأخير أو حذف، أو طول أو إيجاز إلى غير ذلك مما يدل على تمكنه في علوم البلاغة.

والخطيب الإسكافي يقف على أسرار المتشابه اللفظي ويعرف مواطن الحكمة في تخصيص كل آية بما يناسبها، بحيث لا يصلح استبدال حرف أو لفظ أو زيادة ذلك أو حذفه في آية بما في الآية المناظرة لها.

وسلك في ذلك منهجاً دقيقاً واضحاً في توجيه الآيات، غير أنه يلاحظ عليه ـ كما يلاحظ على غيره ـ عدم التدقيق في اختيار المصطلح الذي كان عليه أن يوجه الآيات المتشابهات خلاله، ألا وهو مصطلح التصريف القرآني، الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، إذ قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[14]، وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[15]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[16]، وغيرها من الآيات الدالة على التصريف في القرآن الكريم[17].

والإسكافي ينفي وجود التكرار في القرآن الكريم ويشير إلى التصريف دون

---

(12) درة التنزيل، ص23، 24.

(13) درة التنزيل، ص405.

(14) سورة الأنعام، الآية: 46.

(15) سورة الأنعام، الآية: 65.

(16) سورة الأنعام، الآية: 105.

(17) انظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، 1/ 6 وما بعدها.

أن يصرح به، كما في توجيهه لقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[18]، إذ قال: «وهذه الآية كررت بعينها بعد قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾[19]، أم أنتم مثبتون ما هو منتف، ومن أثبت في الدين ما ليس فيه من هذا البهتان العظيم فهو في الإثم كمن نفى عنه ما هو منه، ففي الأول نفيُ ما هو ثابت من إقرار بني إسرائيل، وفي الثاني إثبات ما هو منفي من كون إبراهيم وإسماعيل هوداً أو نصارى، وكل واحد من هذين يوجب من البراءة ويستحق به من غلظ الوعيد والتخويف بالعقاب والتنبيه على الكبيرة التي تحبط الحسنات مثل ما يوجبه الآخر، فلذلك أعيد في الدعوى الثانية الباطلة ما قدم في الدعوى الأولى الكاذبة، فكما استحقت تلك براءة الذمة من قائلها وتنبيهه على فساد قوله، كذلك استحقت هذه فصارت الثانية في مكانها وحقها كما وقعت الأولى في محلها ومستحقها، فلم يكن ذلك تكراراً، بل كان وعيداً عقب كبيرة، كما كان الأول وعيداً عقب كبيرة أخرى غير الثانية»[20].

ويؤكد أن الله تعالى ـ إذا أورد آية على لفظة مخصوصة ثم أعادها في موضع آخر من القرآن وقد غير فيها لفظة كما كانت عليه في الأولى، فلا بُدّ من حكمة هناك تُطلب، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك بل جهلتم»[21].

والإسكافي يُعْنَىٰ بتوجيه الآيات المتشابهات وبيان الفروق الدقيقة بين تلك الآيات، للوصول إلى نفي التكرار، وقد فاته التصريح بمصطلح التصريف.

إن مصطلح التكرار الذي اتخذ منه أعداء الإسلام مدخلاً للطعن في القرآن، مصطلح لا يليق بعظمة القرآن وبيانه، وهو لا يوجد في القرآن الكريم.

---

(18) سورة البقرة، الآية: 134.

(19) سورة البقرة، الآية: 140، ويعني بذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: 141.

(20) درة التنزيل، ص34.

(21) نفسه، ص20.

وقد حاول الخطيب وغيره من القدماء والمحدثين رد هذا المصطلح ونفيه بنفس المصطلح، وهو ـ كما قلنا ـ لم يصرح بالتصريف، وإنما أشار إلى مدلولاته ـ في توجيهه لهذه الآيات.

وقد أحسن التقريب، حينما بين الفروق الدقيقة بين تلك الآيات المتشابهة، التي تظهر للمتتبع لكتابه هذا، والتي سنراها تتردد في هذه الدراسة.

وحيث إن المقام لا يسع لتفصيل منهجه في كتابه (دُرَّة التنزيل) لذا أقتصر على بيان بعض النقاط التي نتبين منها منهجه، الذي دافع به عن القرآن الكريم، وبيانه المعجز؛ إذ نجده ينفي التكرار بالنظر إلى اختلاف الألفاظ، واختلاف المحكيات، واختلاف الأفراد، ويبيِّنُ أن اللفظ المشترك في كل آية يفيد معنى غير الذي يفيده في الآية الأخرى، مما يحول دون القول بالتكرار.

وقد بين أيضاً حالات أنواع التشابه والحكمة في تصريفها، استناداً إلى تخصيص كل آية بما جاء فيها، دون الآية المناظرة لها من حيث الحذف أو التقديم والتأخير، أو إبدال حرف بحرف أو كلمة بأخرى.

وبين كذلك أن ما في هذه الآية لا يصلح أن يكون في الأخرى، مع بيان الأسباب التي اقتضت ذلك، سواء ما يرجع منها إلى النظم أو إلى المعنى، أو إلى اللغة أو أي سبب آخر.

ومن ثم فإنني سأذكر بعض الدلالات التي تنفي التكرار عن القرآن الكريم، مستفادة من منهجه في كتابه (دُرّة التنزيل) وتثبت التصريف القرآني.

وغني عن البيان أن هذه الدلالات لا تجتمع في كل آية بل يوجد بعضها أو أكثرها في بعض الآيات، ويوجد بعضها الآخر في آيات أخرى.

ويتلخص ذلك في الفقرات الآتية:

أولاً: اختلاف الألفاظ

ونحن نذكر في هذا المقام توجيهه لبعض الآيات، أنموذجاً لما بيَّنَهُ من فروق دقيقة تنفي التكرار عن الآيات المتشابهات استناداً إلى اختلاف الألفاظ،

كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[22]، وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[23].

إذ قال: «لسائل أن يسأل فيقول: لأي معنى اختلف اللفظان في الآيتين فكان في الأولى: أرسل وفي الثانية: ابعث، وهل جاز أحدهما مكان الآخر؟

الجواب أن يقال اللفظتان نظيرتان تستعمل إحداهما مكان الأخرى، وقد جاء بعث؛ الرسول وأرسله معاً، إلا أن أرسل يختص بما لا يختص به بعث؛ لأن البعث لا يتضمن ترتيباً، والإرسال أصله تنفيذ من فوق إلى أسفل، وأرسل في سورة الأعراف حكاية قول العامة للملأ المؤدين كلام فرعون إليهم، فلما تعالى عليهم ولم يخاطبهم بنفسه كان قولهم في جواب ما استأمرهم فيه واستشارهم في فعله على الترتيب الذي رتب لهم في الخطاب، فكانت الحكاية باللفظ الذي يفخم كما فخم تحميله ملأه أن يؤدوا لكلامه إلى من دونهم، ولما تناولت الحكاية في سورة الشعراء ما تولاه فرعون بنفسه من مخاطبة قومه بإسقاط الحجاب بينهم وبينه، وتسوية قدرهم بقدره، لقوله: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ﴾[24] كان هذا الموضع مخالفاً للموضع الأول في مقتضى الحال من التفخيم، فخص باللفظ الذي ليس فيه ما في الأول من التعظيم، وهو قوله: ﴿ٱبۡعَثۡ﴾»[25].

فمن الواضح أن الخطيب يذكر اختلاف الألفاظ بين الآيات؛ ليصل إلى الفرق الدقيق بينها، وذلك لينفي التكرار عنها، وكان الأولى استعمال مصطلح التصريف، الذي هو أولى دلالة من التكرار، تنزيهاً للقرآن عن المطاعن، والذي انصرف عنه أصحاب الدراسات القرآنية والبلاغية، ووجهوا اهتمامهم إلى مصطلح التكرار الذي لا يليق إطلاقه بعظمة القرآن وبيانه[26].

---

(22) سورة الأعراف، الآية: 111.

(23) سورة الشعراء، الآية: 36.

(24) سورة الشعراء، الآية: 43.

(25) درة التنزيل، ص170، 171.

(26) انظر: التصريف في الدراسات القرآنية والبلاغية، بحث للدكتور: عبد الله النقراط، منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد السابع عشر، ص458 وما بعدها.

ثانياً: الطول والإيجاز

ومن الواضح أيضاً أن الإسكافي ينفي التكرار عن القرآن الكريم، اعتماداً على الطول والإيجاز في الآيات المتشابهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[27] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[28].

إذ قال: «الجواب أن يقال لما تقدم في سورة الشعراء ما شرحه أكثر، وما في سورة الأعراف أوجز وأخصر، كان قوله في الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بمعنى ما كان بإزائه في سورة الشعراء ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾، فلم يحتج في جواب لما إلى فاء ولا واو، وكذلك هنا في سورة الأعراف لما قصد هذا المعنى دل بحذف العاطف على هذا القصد»[29].

ثالثاً: اختصاص كل موضع بلفظ غير الآخر:

إن مما ينفي التكرار عن الآيات ويثبت التصريف اختصاص كل موضع بلفظ غير الآخر، الذي مثل له الإسكافي بقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[30] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[31].

«للسائل أن يسأل فيقول: لم قال في الأولى: ﴿غَٰفِلُونَ﴾ وفي الثانية ﴿مُصْلِحُونَ﴾؟

والجواب، أن ذلك إشارة إلى ما تقدم ذكره من العقاب، في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[32] وبعده: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

---

(27) سورة الأعراف، الآية: 113.

(28) سورة الشعراء، الآية: 41.

(29) درة التنزيل، ص172، 173.

(30) سورة الأنعام، الآية: 131.

(31) سورة هود، الآية: 117.

(32) سورة الأنعام، الآية: 128.

مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[33].

يعني العقاب في يوم القيامة، لأنه لم يكن ربك ليفعله من قبل أن يحتجَّ عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من محذورهم ولا يتركونهم في غفلة من أمرهم، فاقتضى هذا المكان أن يقال لم يؤخذوا وهم غافلون، بل كانوا منبَّهين بالإعذار والإنذار على ألسنة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

وأما الموضع الثاني الذي ذكر فيه: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فللبناء على ما تقدم، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[34]، فدل على أن القوم كانوا مفسدين حتى نهاهم ﴿أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وكان نقيض الفساد في الأرض الصلاح، فقال لم يكن الله ليهلكم وهم مصلحون، فاقتضى ما تقدم في كل آية ما أتبعت من الغافلين والمصلحين»[35].

رابعاً: ذكر بعض الألفاظ وتركها في آية أخرى:

استخدم الإسكافي هذه الدلالة لبيان الفرق بين الآيات المتشابهة؛ ليصل بذلك إلى نفي التكرار، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[36]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[37].

والفرق بين ما في سورة الأنبياء وما في سورة الشعراء، هو اختصاص سورة الشعراء بقوله: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ﴾ وخُلُوُّ سورة الأنبياء منها.

والفرق بين الآيتين على ما يراه الإسكافي، هو أن الآية الأولى وقع

---

(33) سورة الأنعام، الآية: 130.

(34) سورة هود، الآية: 116.

(35) درة التنزيل، ص131، 132.

(36) سورة الأنبياء، الآيتان: 52 و53.

(37) سورة الشعراء، الآيات: 69 ـ 74.

السؤال فيها على وجه لا يقتضي (بل) في الجواب؛ لأنه قال: «ما هذه الأصنام التي نَحَتُّموها تماثيل وعكفتم عليها، فكأنه سفه آراءهم وقال لهم لم تفعلون ذلك وتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فاقتدينا بهم، وفي سورة الشعراء، تقدم سؤال أضربوا عنه ونفوا ما تضمنه؛ لأنه قال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فقالوا مضربين عن هذه الأشياء التي وبخوا عليها من عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع ولا يضر... فكأنهم قالوا: لا، ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، فلأن السؤال هنا يقتضي في جوابهم أن ينفوا ما نفاه ـ عليه السلام ـ أضربوا عنه إضراب من ينفي الأول ويثبت الثاني، فاختصاص المكان ببل لهذا»[38].

خامساً: اختلاف المقاصد

استخدم هذه الدلالة أيضاً لنفي التكرار، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[39].

وسرّ ذلك ما بيَّنه بقوله: «والجواب أن يقال: إن القصد في الأمر الثاني غير القصد في الأمر الأول، وذلك أن الأمر الأول يتعدى إلى العبادة، والثاني معناه وأمرت أن أعبد الله لأن أكون أول المسلمين، أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وبعثت رسولاً لأن أكون أول من يبدأ بطاعة الله وعبادته على الإخلاص المطلوب»[40].

سادساً: زيادة حرف وخُلُوّه في آية أخرى:

ويتضح من توجيهه للآيات المتشابهة اهتمامه ببيان الفروق الدقيقة بين الآيات، بالنظر إلى زيادة حرف في آية وخُلُوّه في آية أخرى، كما في قوله

---

(38) درة التنزيل، ص299.

(39) سورة الزمر، الآيتان: 11 و12.

(40) درة التنزيل، ص405.

تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[41] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[42].

فأدخل الواو في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ في سورة إبراهيم وحذفها منه في سورة البقرة.

والفائدة التي يجوز أن تكون خصصت لها الآية في سورة إبراهيم بالعطف بالواو، هي أنها وقعت هنا في خبر، قد ضمن خبراً متعلقاً به؛ لأنه قال قبله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[43].

ثم قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فضمن إخباره عن إرسال موسى بآياته إخباره عن تنبيهه قومه على نعمة الله ودعائهم إلى شكرها، فكان قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ في هذه السورة في قصة مضمنة، قصة يتعلق بها هي قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والقصة المعطوفة على مثلها تقوّي معنى العطف فيها، وليس كذلك موقع ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ في الآية التي في سورة البقرة؛ لأنه تعالى أخبر عن نفسه بإنجائه بني إسرائيل، وهناك أخبر عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه كذا، بعد أن أخبر عنه أنه أرسله إليهم بآياته، فافترق الموضعان من هذا الوجه[44].

سابعاً: اختصاص كل آية بحرف من حروف العطف:

وقد نفى الإسكافي التكرار بين الآيات المتشابهة، اعتماداً على اختصاص

---

(41) سورة البقرة، الآية: 49.

(42) سورة إبراهيم، الآية: 6.

(43) سورة إبراهيم، الآية: 5.

(44) درة التنزيل، ص13، 14.

كل آية بحرف من حروف العطف كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾[45]، وقال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾[46]، وقال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾[47].

وقد أوضح سر ذلك فقال: «والجواب أن يُقال: إن السورتين اللتين جاءت الواو فيهما بهذا اللفظ منهما هما المبنيتان على الاقتصار الأكثر والبسط الأوسع، والواو أشبه بهذا المعنى، لأنه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقاً لما قبلها، كالتعقيب الذي يفاد بالفاء، ويجوز أن يكون متراخياً عنه كالمهلة التي تُفاد بثم، لا بل يجوز أن يكون ما بعدها مقدماً على ما قبلها ومجامعاً لها، إذ هي موضوعة للجمع ولا ترتيب فيها، فكانت الواو أشبه بهذين المكانين، وثم تختص بأحد المواضع التي تصلح الواو لجمعها، فلما كانت مُقتَصَرًا بها على بعض ما وضعت له الواو استعملت حيث اختصرت الحال فاقترن بكل من المكانين ما كان أليق بالمقصود فيه»[48].

ثامناً: اختلاف الصفات:

ويجعل الخطيب اختلاف الصفات، سبباً في نفي التكرار عن الآيات المتشابهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[49]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[50].

فلماذا اختصاص الآية الأولى بصفة ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ والثانية بصفة ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾؟

وهذا السؤال قد أجاب عنه الخطيب بقوله: «إن من جحد آيات الله فقد كفر نعمته، وهذا أول ما يفعله؛ لأن ذلك متعلق بما قبله ممن تولى خلقه وأنعم

---

(45) سورة الأعراف، الآية: 124.

(46) سورة طه، الآية: 71.

(47) سورة الشعراء، الآية: 49.

(48) درة التنزيل، ص179.

(49) سورة العنكبوت، الآية: 47.

(50) سورة العنكبوت، الآية: 49.

عليه بما استوجب به شكره، فأولُ فِعْلِهِ كُفْرُ نِعَم الله، ثم إنه مسيء إلى نفسه ظالم بأن أبدلها من النعيم الذي عرض له عذاباً لَا يطيقه، فكفره أولٌ في الذكر وظلمه ثانٍ؛ لأنه فَوَّتَ نَفْسَهُ عظيمَ الأجر آخراً في العمل، فقدم الكافرين على الظالمين لذلك»[51].

تاسعاً: اختصاص كل لفظ بموضعه:

إن مما ذكره الخطيب في نفي التكرار بين الآيات المتشابهة هو اختصاص كل لفظ بموضعه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[52]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[53].

وأجاب عن ذلك بقوله: «إن مكان كل واحد يقتضي ما وقع فيه، وبين اللفظين فرق في المعنى يوجب اختصاص اللفظ الذي جاء له»[54].

وهذا الفرق في المعنى الذي أوجب اختصاص كل لفظ في موضعه هو التصريف، الذي يحسن أن تتوجه الآيات به؛ لأنه مصطلح قرآني ارتضاه الله لوصف كتابه المعجز.

عاشراً: توكيد الخبر وتركه

إن مما يفرق بين الآيات المتشابهات، توكيد الخبر وتركه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[55]، وقال قبله في سورة لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[56].

---

(51) درة التنزيل، ص354.

(52) سورة الأنعام، الآية: 117.

(53) سورة القلم، الآية: 7.

(54) درة التنزيل، ص129.

(55) سورة الشورى، الآية: 43.

(56) سورة لقمان، الآية: 17، يلاحظ عليه في هذا الموضع أنه لم يتبع ترتيب السور على غير عادته.

وبعد أن قدم لذلك بسؤال، أجاب عنه بقوله: «والجواب أن يقال إنّ ما رغّب الله تعالى فيه عبده من الصبر على ما آلم قلبه من جناية جانٍ عليه حتى يغفر لمن ظلمه، ويهب له من القصاص حقه، ترغيب فيما يشق على الإنسان فعله، إلا أن الله تعالى حسنه بما وعد من عفا عما يجب له من الأجر الذي ضمنه، ففيه مع جزيل الثواب إصلاح ما بين عشيرته وعشيرة الجاني عليه بإطفاء الثائرة عنهما، وإذا كان هذا من أصعب ما يتحمله الإنسان وجب من توكيد الكلام فيه ما لا يحب في غيره، فأدخلت اللام على (من عزم الأمور) على معنى أنه من الأمور التي يُحْتاج إلى توطين النفس عليها وتَخَيُّر أرفعِها وأعلاها.

وليس كذلك ما في سورة لقمان؛ لأنه قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ وليس يختص صبراً على ظلم يلحقه فيرغب في العفو عن الظالم... فأما الموضع الذي أبيح فيه الانتصاف، فالصبر فيه أحق، وكظم الغيظ معه أشد، والكلام فيه إلى التوكيد أحوج... فافتقر المكان الأول من تقوية الكلام فيما ينبه على الأصل، إلى ما لم يحتج إليه المكان الآخر»[57].

الحادي عشر: التقديم والتأخير

إن مما يستدل به على نفي التكرار وإثبات التصريف القرآني، التقديم والتأخير في الآيات المتشابهات، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[58]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[59].

والسر في ذلك قد بينه الخطيب بقوله: «إنما قدم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى؛ لأن العبادة تقام للمعبود خوفاً من العقاب أولاً، ثم رجاءً للثواب ثانياً، وقد تقدم في هذا المكان ما أوجب تقديم يضرهم على ينفعهم في الآية

(57) درة التنزيل، ص428.

(58) سورة يونس، الآية: 18.

(59) سورة الفرقان، الآية: 55.

الأولى، وهو قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[60]، فكأنه قال: ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضرراً في معصيته ولا يرجون نفعاً في عبادته، وقدم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ على ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمۡ﴾ في هذا المكان لهذا المعنى ولهذا اللفظ.

وأما في سورة الفرقان فقد تقدمت قبلها آيات قدم فيها الأفضل على الأدون، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾[61]، وقوله بعده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا﴾[62]، وصلة النسب أفضل من صلة المصاهرة، كما أن العذب من الماء أفضل من الملح، وقال بعده ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي يتكلفون المشقة بعبادة ما لا يرجونه لنفع ولا يخشونه لضر، فقدم الأفضل على الأدون لهذا المعنى وللبناء على ما تقدم من الآيات، فجاء في كل موضع على ما اقتضاه ما تقدمه وصح في المعنى الذي اعتمد له»[63].

الثاني عشر: اختلاف الجمع والإفراد

نجد الإسكافي أحياناً ينفي التكرار عن الآيات المتشابهة، اعتماداً على اختلاف الجمع والإفراد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[64].

إذ قال: «الجواب أن يقال في ذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث لوط وضيف إبراهيم وتعرُّض قوم لوط لهم طمعاً فيهم، وما كان من أمرهم آخِراً من إهلاك الكفار وقلب المدينة على من فيها، وإمطار الحجارة على من غاب عنها، وهذه أشياء كثيرة في كل واحد منها آية

---

(60) سورة يونس، الآية: 15.

(61) سورة الفرقان، الآية: 53.

(62) سورة الفرقان، الآية: 54.

(63) درة التنزيل، ص209، 210.

(64) سورة الحجر، الآيات: 75 ـ 77.

وفي جميعها آيات لمن يتوسم، أي لمن يتدبر السمة، وهو ما وسم الله تعالى به العاصين من عباده ليستدلوا بها على حال مَنْ عَنَدَ عن عبادته فتجَنَّبها.

وكان ذكر الآيات ها هنا أولى وأشبه بالمعنى، وأما قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿76﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تلك المدينة المقلوبة ثابتة الآثار، مقيمة للنظار، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها، وهذه واحدة من تلك الآيات، فلذلك جاء عقبها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾»[65].

الثالث عشر: الإجمال والتفصيل

وقد يعتمد على نفي التكرار على ما بين الآيات من إجمال وتفصيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[66]، وقال في سورة الحج: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾[67].

«الجواب أن يقال: ذكر في سورة النحل الجملة التي فصلت في سورة الحج وكانت لفظة (بعد) لجملة الزمان المتأخر عن الشيء، قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ فأجمل ما فصل في السورة الأخرى، وبعده: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ أي يعزب عنه في حال الهرم ما كان يعلمه قَبْلُ من الحِكَمِ ويستدركه من الآراء المصيبة ويرتكبه من المذاهب القويمة.

كان هذا موضع جمل لا تفصيل معها ولا تحديد، ولم يكن كذلك الأمر في سورة الحج؛ لأنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[68]، يعني أصلكم وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[69] أولاده

---

(65) درة التنزيل، ص252 ـ 253.

(66) سورة النحل، الآية: 70.

(67) سورة الحج، الآية: 5.

(68) سورة الحج، الآية: 5.

(69) سورة الحج، الآية: 5.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[70] فذكر تفصيل الأحوال ومباديها، فقال: من كذا ومن كذا الابتداء كل حال يتنقل منه إلى غيره، فبنى ذكر الحال التي ينتقل فيها من العلم إلى فقده على الأحوال التي تقدم ذكرها، فكما حدد أوائلها بمن كذلك حدد الحال الأخيرة المنتقلة عما قبلها بمن قال: ﴿بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي فقد العلم من بعد أن كان عالماً فباين الموضع الأول لذلك»[71].

الرابع عشر: اختلاف المحكيات

إن مما نفى به الإسكافي التكرار عن الآيات المتشابهة، هو اختلاف المحكيات، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿16﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[72]، وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[73]، وقوله تعالى في سورة ص: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿82﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[74].

«والجواب عن اختلاف الألفاظ المحكية أن يُقال متى حملت الباء على القسم في قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ في الآيتين بشهادة الآية الثالثة وهي: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لم يكن هناك اختلاف في المعنى؛ لأن المراد في قوله بإغوائك إياي، وهو يحتمل وجوهاً من المعنى، أحدهما أن يكون المراد بتخييبك إياي لأجتهدن في تخييبهم، وهذا ظاهر الكلام؛ لأن القسم متلقى باللام؛ ولأن قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ في مقابلتهما من الآية الأخرى، وتخييب الله إياه هو بعزته...

والثاني أن يكون المراد بإهلاكك إياي بأن لعنتني، وهذا الفعل أيضاً عزة

---

(70) سورة الحج، الآية: 5.

(71) درة التنزيل، ص269.

(72) سورة الأعراف، الآيتان: 16 و17.

(73) سورة الحجر، الآيتان: 39 و40.

(74) سورة ص، الآيتان: 82 و83.

من الله، وكذلك إن حمل على معنى الحكم بغوايته فهو عزة من الله ـ تعالى ـ وإذا كان كذلك تساوت في المعنى، وكُلٌّ قسمٌ والإغواء الذي هو التخييب أو الإهلاك أو الحكم بالغواية، كل ذلك عزّة من الله تعالى فالقسم به كالقسم بعزته»[75].

الخامس عشر: الإظهار والإضمار

ونجد أن من الدلالات التي يستدل بها على نفي التكرار، الإظهار والإضمار كما فعل الخطيب الإسكافي عند توجيهه لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[76]، وقوله تعالى في سورة طه والشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[77].

إذ قال: «والجواب عن الموضع الأول هو إظهار الاسم في سورة الأعراف وإضماره فيما سواها إن الذكر العائد إلى فرعون بعد في سورة الأعراف لأنه جاء في الآية العاشرة في الآية التي أضمر فيها ذكره وهي قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[78].

وجاء في الآية العاشرة من هذه السورة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ ولم يبعد هذا الذكر في الآيتين اللتين في سورة طه والشعراء، لأن فرعون مذكور في سورة طه في جملة قومه الذين أخبر عنهم بقوله: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[79] وبعد: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[80]. وهذا خطابه لفرعون وقومه، وضميرهم مُنْطَوٍ على ضميره إلى قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟

(75) درة التنزيل، ص144، 145.
(76) سورة الأعراف، الآية: 123.
(77) سورة طه، الآية: 71، والشعراء، الآية: 49.
(78) سورة الأعراف، الآية: 114.
(79) سورة طه، الآية: 57.
(80) سورة طه، الآيتان: 60 و61.

صَفًّا﴾[81]، والذكر في قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ إنما هو في السابع من الآي التي جرى ذكره فيها.

وكذلك في سورة الشعراء لم يبعد الذكر بعده في سورة الأعراف، ألا ترى أن آخر ما ذكر فيما اتصل بهذه الآية قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[82].

وذكره بعد ذلك في الآية الثامنة من الآية التي جرى ذكره فيها، فلما بعد الذكر في سورة الأعراف خلاف بُعْده في السورتين، إذ كان في إحداهما في السابعة وفي الأخرى في الثامنة، وهي في الأعراف في العاشرة أعيد ذكره الظاهر لذلك»[83].

السادس عشر: اختلاف التعقيبات

استدل الإسكافي على نفي التكرار باختلاف التعقيبات، كما في قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[84].

وأرجع سر اختلاف هذه التعقيبات إلى أن التفكر إعمال النظر لِتَطَلُّبِ فائدة، وهذه المخلوقات التي تنجم من الأرض إذا فكر فيها علم أن معظمها ليس إلا للأكل، وأن الأكل به قوام ذي الروح، وأن المنعم عليه يحتاج أن يعرف المنعم به؛ ليقصده بشكر إحسانه.

فهذا موضع تفكر بعث الناس عليه ليفضي بهم إلى المطلوب منهم.

---

(81) سورة طه، الآية: 64.

(82) سورة الشعراء، الآية: 42.

(83) درة التنزيل، ص175، 176.

(84) سورة النحل، الآيات: 11 ـ 13.

وأما تعقيب ذكر الليل والنهار وما سخر في الهواء من الأنواء بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلأن متدبر ذلك أعلى مرتبة من متدبر ما تقدم، إذ كانت المنافع المجعولة فيها أخفى وأغمض، فمن استدرك الآيات فيها استحق الوصف بما هو أعلى من رتبة المتفكر المتدبر؛ لأنه المنزلة الثانية التي تؤدي إليها الفكرة، وهو أن يعقل منها مطلوبة منها، ويدرك فائدته منها.

وأما الآية الثالثة وهي: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فلأنه لما نبّه في الأولَيَيْن على إثبات الصانع نبّه في الثالثة على أنه لا شبه له مما صنع؛ لأن من رأى المخلوقات أصناماً مزدوجة مؤتلفة أو مختلفة نفى عنه صفاتها وعلم أن خالقها يخالفها لا يشبهها ولا تشبهه[85].

يتضح من العرض السابق للدلالات المختلفة التي أوردها الخطيب الإسكافي، أنه يبين الفروق الدقيقة بين الآيات المتشابهة، لينفي التكرار عنها، اعتماداً على هذه الدلالات المختلفة.

والمتمعّن في هذه الدلالات التي ذكرها الإسكافي عند توجيهه للآيات المتشابهة يجد أنه ينفي التكرار عن القرآن الكريم، ويشير إلى مدلولات التصريف القرآني، دون التصريح بذلك.

وقد استخدم هذه الدلالات استخداماً دقيقاً في التعمّق في فهم معاني الآيات، والكشف عن أسرارها، ولطائفها الدقيقة.

وقد استفاد من معرفته الواسعة بأسرار اللغة العربية وبلاغتها، وسخّر تلك المعرفة لإبراز المعاني الدقيقة التي تستخرج من أساليب نظم الكلام.

والحق أن اختلاف هذه الدلالات يدل على التصريف العجيب، والتنوع البديع، الذي تميز به الكتاب العزيز.

والحمد لله رب العالمين

---

(85) درة التنزيل، ص258، 259.

مصادر البحث ومراجعه

1 ـ القرآن الكريم، مصحف الجماهيرية، برواية الإمام قالون، والرسم العثماني على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني، أشرفت على إعداده وطباعته ونشره، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس/ ليبيا.

2 ـ **الإتقان في علوم القرآن**، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، د.ت.

3 ـ **البرهان في علوم القرآن**، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، ط الثانية 1391هـ/ 1972م.

4 ـ **البرهان في متشابه القرآن**، للإمام محمود بن حمزة الكرماني، تقديم ومراجعة، أحمد عز الدين وعبد اللّه خلف اللّه، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ط الأولى 1411هـ/ 1991م.

5 ـ **بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى)** إعداد الباحث: عبد اللّه محمد النقراط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1997، 1998م، وهي أطروحة دكتوراه (نشر دار قتيبة للطباعة والنشر 2003ف).

6 ـ **درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز**، للخطيب الإسكافي، برواية أبي الفرج الأردستاني، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الثالثة 1979م.

7 ـ **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**، تأليف بدر الدين بن جماعة، تحقيق وتعليق عبد الجواد خلف، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، باكستان، ط الأولى 1410هـ/ 1990م.

8 ـ **مجلة كلية الدعوة الإسلامية طرابلس/ ليبيا**، العدد السابع عشر 2000م.